الشعر الأندلسي

والتصدي للإنهيار

الدكتور :

الربعي بن سلامة

جامعة قسنطينة * الجزائر *

منذ أن سقطت الأندلس سنة 897 هـ / 1492 م و الدارسون يحاولون الكشف عن أسباب هذا السقوط ، لمعرفة العوامل الموضوعية التي أدت الى إنهيارالمجتمع الأندلسي وضياع الأندلس . وقد تعددت الآراء بتعدد هؤلاء الدارسين ، وإختلفت باختلاف منطلقاتهم ،ولكن مهما اختلف هؤلاء الداسون في تحديد أسباب إنهيار الأندلس ، فانهم لايخرجون ، في تقديرنا ، عن اربعة اتجهات رئيسية هي :

1- **الإتجاه السياسي** : ويرى أصحابه أن ضياع الأندلس إنما كان بسبب فساد طبقة السياسيين فيها ، وتهافتهم على كراسي الحكم .

2 - **الإتجاه الإجتماعي** : ويرى ممثلوه أن السبب يرجع الى تفكك المجتمع الأندلسي وتنافر عناصره بسبب إختلاف أجناسها وتنوع مشاربها الحضارية .

3 - **الإتجاه الديني** : ويرى أن السبب يرجع إلى تهاون المسلمين في أمور دينهم وإستسلامهم لملذاتهم وشهواتهم .

4 - **الإتجاه الجبري أو القدرى** : ويرى أصحابه أن إنهيار المجتمع الأندلسي وضياع الأندلس ما هو إلا قضاء وقدر ، لادخل لأحد فيهما ، لم يكن باستطاعة أحد أن يحول دون وقوعهما .

وإذا كنا لانريد أن نناقش هذه الآراء ، ولانريد أن نرجح بعضها على بعض لأنها ،في تقديرنا ، أوسع من أن يحاط بها في مثل هذا العرض المحدود ، فاننا نريد أن نتوقف عند جانب واحد منها ، وهو الجانب الذي لايكتفي أصحابه في تعليل الإنهيار والسقوط بواحد من الاتجاهات المذكورة ، وإنما يضيفون الى ذلك عاملا آخر حين يحملون الأدب جانبا من المسئولة في ضياع الأندلس ، ويعدونه واحداً من العوامل التي أسهمت في انهيار الجانب الأخلاقي للمجتمع الأندلسي وأهلته للسقوط .

وممن يذهبون الى هذا الرأي ؛ شوقي ابو خليل الذي يقول :

" وعلة السقوط عرفها القريب و البعيد ... إنها ترك ديننا وفضائلنا و الميل الى

الخفة و المرح و الإسترسال في الشهوات ." (1) ثم يضيف في موضع آخر قائلا : " ومال المسلمون في الأندلس الى حياة الرخاء و النعيم متناسين من يمكر بهم ... كان عدوهم يستعد عسكريا ويوحد كلمته ، وهم في خصوماتهم و موشحاتهم ... " (2)

ويختم كلامه بخلاصة يقول فيها :

" دخلنا الأندلس عندما كان نشيد طارق في العبور اللّه أكبر ، ذلك النشيد الذي لمس سمع الزمان فترنم لعذوبته وصدقه وجلاله " وخرجنا منها لما صار النشيد .

دوزن العود وهات القدحا راقت الخمرة والورد صحا !! " (3)

فهو ، كما نرى لم يكتف في تعليل السقوط بضعف الوازع الديني وإنما ربط إنحلال الأندلسيين وإسترسالهم في الشهوات بالشعر و الموشحات .

وممن يقولون بهذا الرأي أيضا : المرحوم أحمد توفيق المدني و الدكتور مصطفى الشكعة : اللذان سنرى رأييهما بعد حين .

وقد حاول الدكتور إحسان عباس أن يبرئ ساحة الأدب الأندلسي من مثل هذه التهمة ، في البحث الذي نشره بعنوان " الشعر الأندلسي و الاخلاق " حيث إنتهى بعد عرض العديد من المعطيات الى خلاصة يقول فيها .

« وعلى هذا قد يكون من الصواب ألا نحمل الأدب مسئولية كبرى في النهاية التى انتهت إليها الأندلس ،بل أن نرى فيه نشاطا إنسانيا يتضافر مع سائر ضروب النشاط الإنساني من فكرية وتنظيمة واقتصادية ويقدم العون ، ويصاب بالمد أو الجزر بحسب مدتلك النشاطات وانحسارها . (4)

---

1 - أبو خليل ، شوقي - مصرع غرناطة - ط2 - دمشق : دار الفكر ، 1981 م - ص 119

2 - نفسه - ص 120 .

3 - عباس ، إحسان - وآخرون - دراسات فى الأداب الأندلسي - ليبيا - تونس : الدار العربية للكتاب 1976 م - ص ص ، 33 ،34 .

4 - حول وظيفة الأدب وماقيل فيها من أراء ،ينظر على سبيل المثال:

(أ) - عاصي ،ميشال . الفن والأدب - ط2 -بيروت :المكتب التجاري للطباعة النشر والتوزيع ،1970 م ص ص 13 - 60

(ب) - ويليك ،رينية وارين أوستن - نظرية الأدب . ترجمة محي الدين صبحي - دمشق :مطبعة خالد الطربيشي ، 1972 م ص ص 31 - 43 .

وإذا كانت وظيفة الأدب من الأمور التي يختلف حولها المنظرون ، بحسب منطلقاتهم ومدارسهم ،فان الرأي الذي نتبناه - وهو السائد - يذهب إلى أن الأدب نتاج إجتماعي ، يتأثر ببيئته الإجتماعية ويؤثر فيها يستمد منها جذوره ولكنه يضيف إليها ، في الوقت نفسه ،بما يقدمه لها من إمكانات لإستكمال نقصها وتصحيح مسارها ،بما يتانسب ومتطلبات التطور عبر مسيرة الزمن (1) .

ولانعتقد أن الأدب الأندلسي يشذ عن هذه القاعدة ، فهو تجلّ ،أو إنعكاس لواقعه الإجتماعي ،وتعبير عنه ، ولكن ليس معني ذلك ان يكون مطابقا مطابقة تامة لهذا الواقع ، أو انعكاسا سطحيا له فى جميع الحالات ،بل قد يحتفظ لنفسه بنوع من الإستقلال ، فيتقدم واقعة أحيانا ، و يتأخر عنه أحيانا أخرى أوهوكمايقول الدكتور وهب رومية : « قد يتأخر .... عن الحياة أحيانا ، ولكنه يستطيع أيضا بمافيه من قوة الإستنهاض أن يتقدم و يكشف ويقترح . » (2)

واذا كنا لانستطيع أن نتناول الشعر الأندلسي في حالتي التقدم والتأخر ، فاننا سنكتفي ، هنا ،بالتوقف عند بعض النماذج التى تمثل جانبا من الحالات التى انطلق فيها الشعر الأندلسي من واقعة الآيل للإنهيار ،ولكنه حاول أن يتقدم هذا الواقع ليسهم فى المحافظة على كيان المجتمع الأندلسي،بتحذيره من الأخطار المقبلة ، وتوجيهه نحو المسار الذي يحب سلوكه للتصدي لتلك الأخطار و الحيلولة دون وقوع الإنهيار .

وقد بدأت أولى صيحات التحذير مع بداية بوادر التمزق الذي أصاب المجتمع الاندلسي ، باندلاع الفتنة التي اجتاحت عاصمة الخلافة : قرطبة سنة 399 هـ ، حيث حذر أحد شعراء قرطبة، آنذاك ، مواطنيه من هذا التمزق وأنبأهم - إن لم يتداركوا أمرهم - بمستقبل قاتم لاينجو من التردي في ظلماته أحد ، فقال : (3)

---

1 - رومية ، وهب ،قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي. دمشق:وزارة الثقافة ، 1981 م ص 32

2 - المراكشي ،ابن عزاري .البيان المغرب فى أخبار الأندلي والمغرب . تحقيق ليفر بروفيستال .بيروت :دار الثقافة ،1967 م جـ 1 - ص 110 .

3 - سورة الحشر :(2)

أضعتم الحزم في تدبير أمركم ستعلمون معاعقبي البوار غدا
فلوا رأيتم بعين الفكرحالكم بكيتم بدم أن دمتم بددا
كن سبل العمى أعمت بصائركم فألبستكم ثيابا للبلى جددا
يا أمة هتكت مستور سوأتها ماكل من ذل أعطى بالصغار يدا
في سورة الحشرآيات مفصلة في شأنكم أنزلت لم تعدكم أحدا
نعم وفي الكهف في العشرين خاتمة تقضي عليكم بألا تفلحوا أبدا
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت جميعكم محنة لاتنقضي أبدا

ولايخفى ماتشتمل عليه هذه الأبيات من نقدٍ سياسي وإجتماعي ، فقد جمع الشاعر فيها بين التحذير والتقد ،فأبرز حالة التشتت والفرقة التى أصابت الأندلسيين و أبعدت ساستهم عما يجب أن يكونوا عليه من الحزم فى تدبير شؤونهم ، ولكي يضع أمامهم صورة مفجعة لواقعهم المتردي ،عمد إلى الإستعانة بصورتين من القران الكريم ، نرى من خلالهما الأندلسيين وهم « يخربون بيوتهم بأيديهم » (1) ونراهم وقد تغلب عليهم أعداؤهم وأبادوهم ،أو أدخلوهم فى ملتهم ، ولافلاح لهم فى الحالتين (2).

وقد يأتي التحذير في شكل تحريض على الفرار ، ودعوة الى الإنسحاب من أرض المعركة و الصراع ، كما جاء على لسان الشاعر الفقيه ابن العسال، بعد فاجعة سقوط طليطلة في يد ألفو نسو السادس (3) سنة 478 هـ ، حيث يقول : (4)

يا أهل الأندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لايفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفط ؟

ويرى المرحوم أحمد توفيق المدني أن هذه الأبيات ماهي إلا دعوة للهزمية، حيث قدم لها ، بعد أن عرض عددا من أسباب سقوط غرناطة بقوله :

---

1 - سورة الكهف :(20)

2 - ألفونسو السادس ، هو ألفونسوبن فرناندو الأول، عين على رأس مملكة ليون سنة 1064 ثم استولى على مملكة قستالة ومملكة البرتغال ،وتوفى سنة 1109 (*MOURRE.D.E H ALPHONSE*)

3 - المقرى ، أحمد بن محمد - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق إحسان عباس ، بيروت :دار صادر ،1968م ،جـ 4 ،ص 352 .

4 - المدني،أحمد توفيق .« انهيار بلاد الأندلس وموقف دول الإسلام واسطنبول من ذلك » مجلة الأصالة - ع 27 ،1975 م -ص 181 -

« هكذا سقطت مملكة غرناطة ، لأنها كانت تحفر بيدها قبرها ، وتهيئ بنفسها أسباب سقوطها . وإذا كان بها جماعة غفيرة من المغاوير ، فقد كان بها أيضا جماعة أشربوا في قلوبهم دعوة الهزيمة ونخر سوسهم عظامهم . ألم يكن من الأندلسيين من يقول منذ الوهلة الأولى :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... » (1) الى آخر الأبيات .

ويوافقه في هذا الرأي الدكتور مصطفى الشكعة الذي يعتبر هذه القطعة دعوة الى تكريس الهزيمة ، حيث قال ، بعد أن استعرضها ،في التقديم لبيتين آخرين لشاعر آخر .

« وهذا شاعر أكثر تشاؤما ، بل إنه داعية الى الخراب ، متطوع لبث روح الهزيمة ... » (2) وهو يعني ذلك الشاعر الذي قال في المناسبة نفسها :(3)

يا أهل أندلس ردوا المعار فما	في العرف عارية إلا مرادات
ألم تروا بيدق الكفار فرزنة	وشاهنا آخر الأبيات شهمات

وإذا كان هذا التحذير يوحي باليأس و الإستسلام ، ويبث الهزيمة ظاهريا ، بدعوة الناس إلى الفرار حينا ، ومطالبتهم برد العارية حينا آخر ، فإن ذلك يرجع الى شدة إحساس الشاعرين بوقع الكارثة ، وشعورهما بجسامة الخطر الذي يهدد الوجود العربي الإسلامي في الأندلس ، ولكنه ليس دعوة إلى تكريس الخزيمة - كما يذهب إلى ذلك توقيف المدني،.ومصطفى الشكعة - بقدرما هو تجسيد لضخامة الخطر ومبالغة في تحذير الأندلسيين ، حتى يتجنبوا الوصول الى هذه النتيجة المأساوية التي وضع الشاعران صورتها المفجعة أمام أعينهم .

ولم يكتف الشعراء بتحذير الأندلسيين من الأخطار ودعوتهم الى جمع الصفوف لمواجهتها ، وإنما قرنوا الدعوة الى الإتحاد بالدعوة الى الجهاد ، لصد الخطر ورد

---

1 - الشكعة ،مصطفى - الأدب الأندلسي -موضوعاته وفنونه -ط4 .بيروت :دار العلم للملايين ، 1979 م ص .514.
2 - المقرى .نفخ الطيب 4-:352 .
3 - نفسه -ص ص 484 ،485 .

العدوان . وهذا مانراه عند ذلك الشاعر المجهول الذي أطلق صيحة مدوية ، بعد سقوط طليطلة ، يهيب فيها بالأندلسيين أن يهبوا لتخليص المدينة من أسرها ، وأن يأخذوا للديانة بثأرها ، حتى ولو كان في ذلك موتهم جميعا ، لأن الموت أهون من حياة الذل ، وقد قدم لهذا الإستنفار ببيان مكانة المدينة في نفوس المسلمين ، فقال : (1)

طليطلة أباح الكفر منها ... حماها إن ذا نبا كبير
فليس مثالها إيوان كسرى ... ولامنها الخورنق و السدير
محنصة محسنة بعيد ... تناولها ومطلبها عسير
ألم تك معقلا للذين صعبا ... فذ لله كما شاء القدير
وأخرج منها أهلها جميعا ... فصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانت دار إيمان وعلم ... معالمها التي طمست تنير
فعادت دار كفر مصطفاة ... قد اضطربت بأهليها الأمور
مساجدها كنائس ، أي قلب ... على هذا يقر ولا يطير ؟

وبعد رثاء المدينة وبيان ما لحق بأهلها ومقدساتها من ضيم وهوان ، يفقد الشاعر صبره فيتوجه الى الأندلسيين قائلا :

خذوا ثأر الديانة وانصروها ... فقد حامت على القتلى النسور
ولاتنهوا وسلوا كل عضب ... تهاب مضاربا منه النحور
وموتوا ولاتنهوا كلكم فالموت أولى ... بكم من أن تجاروا أو تجوروا
أصبرا بعد سبي وامتحان ... يلام عليهما القلب الصبور
فأم الثكل مذكار ولود ... وأم الصقر مقلات نزور

فهو ، هنا ، يدعو الناس الى التخلي عن الصبر على القيم، لأنه في الحقيقة ذل وليس صبرا ، كما يهيب بهم أن يتخلوا عن مخاوفهم ، لأن الحرص على الحياة لايزيد من عدد الأحياء ، بل الحرص على الموت هو الذي يهب الحياة .

وشعر التصدي لعوامل الإنهيار في الأندلس أكبر وأوسع من أن يحاط به في

---

1 - ابن بسام الشنتريني .الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - تحقيق إحسان عباس-ليبيا - تونس :الدار العربية للكتاب ، 1978 م . 1/2 ص ص 89 90

مثل هذا العرض الموجز ، لأننا إذا كنا قد رأينا أولى صيحات التحذير من التمزق الداخلي ، وهي تنطلق إثر اندلاع نيران الفتنة في قرطبة سنة 339 هـ ، فإن أولى صيحات التحذير من الأخطار الخارجية قد انطلقت إثر فاجعة مدينة « بربشتر » التي سقطت في أيدي النورمانديين سنة 456 هـ ، حين حذر الشاعر الفقيه عمر بن الحسن الهوزني الأندلسيين ، ودعاهم للإستعداد لمواجهة الأخطار المقبلة ، فقال : (1)

بيت الشر فلا يستزل ... طرق النوام يسمع أزل
فثبوا واخشوشنوا واحزئلوا ... كل ما رزء سوء الدين قل
صرح الشرفلا يستقل ... إن نهلتم جاءكم بعد عل
بدء صعق الأرض نشء وطل ... وريـاح ثم غيم أبل
قد رجعت عاد سحابا يهل ... فاذا ريح دبور محل
نقبوا فالداء رزء يحل ... واغمدوا سيفا عليكم يسل

ويبدوأن الأندلسيين لم يعيروا هذه النكبة ما تستحقه من إهتمام ، أو اعتبروها مجرد حادث بسيط لايلبث أن يمحوه الزمن ، ولكن الشاعر يراها بداية لأمور عظام ، يجب على الأندلسيين ألا يستهينوا بها ، وأن يستعدوا لمواجهة ما يتلوها ، ولكي يجسم لهم تلك الأخطار و الكوارث المقبلة استعان بصورتين ، تتمثل أولاهما في ذلك المطر المهلك الذي لايبدأ - عادة - إلا بقطرات خفيفة ، ولكنها لاتلبث أن تتحول الى سيول جارفة وعواصف لاتبقى ولاتذر ، وتتمثل الثانية في تلك الريح التي ظنها قوم هود سحابة غيث ، فاذا هي ريح صرصر عاتية ، لم تغادر القوم إلابعد أن أصبحوا كأعجاز نخل خاوية .

وبهاتين الصورتين يكون الشاعر قد وضع أمام أنظار الأندلسيين مشهدا مجسما لما ينتظرهم من أخطار ، وحذرهم من الإستهانة بالبدايات البسيطة التي تنبئ بنهايات مفجعة .

وقد إستمر الشعر ، بعد هذه الفاجعة ،يحذر الأندلسيين من خطر الإنقسام و خطر الصليبية الزاحفة من الشمال ، ويدعوهم إلى تقوية صفوفهم بالإتحاد ،

---

1 - ابن الأبار - ديوان ابن الأبار -تحقيق عبد السلام الهراس -تونس :الدار التونسية للنشر ، 1985 م ص ص33 - 40 .

ويستنفرهم - كلما داهمتهم الأخطار - لصد العدوان بالإستماتة في الجهاد ، كما رأينا في تلك الصيحة التي أطلقها ذلك الشاعر المجهول إثر سقوط طليطلة . وإذاقدر الشعراء أن الأخطار الداهمة أكبر من أن يتصدى لها الأندلسيون بمفردهم ، استصرخوا إخوانهم المسلمين من شمال إفريقيا ، واستغاثوا بهم لصد مالاقبل لهم بمواجهته منفردين .

ومن الشعراء الذين اشتهروا ، في باب الإستغاثة للأندلس ، ابن سهل الإشبيلي الذي استصرخ العرب للجهاد في الأندلس سنة 640 هـ ،

بقصيدة استهلها بقوله : (1) .

وردا فمضمون نجاح المصدر ... هي عزة الدنيا وفوز المحشر
نادي الجهاد بكم لنصر مضمر ... يبدو لكم بين العتاق الضمر
خلوا الديار لدار خلد وأركبوا ... غمر العجاج الى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل في السرى ... تروا بماء الحوض غير مكدر
وتجشموا البحر الأجاج فانه ... سبب به تردون نهر الكوثر

ويستمر في إغراء المستغاث بهم بتعداد مزايا الجهاد؛ الذي لاجزاء له إلا الفخر في الدنيا و الجنة في الآخرة ، الى أن يقول :

لو صور الإسلام شخصا جاءكم ... عمدا بنفس الوامق المتحير
لو أنه نادى لنصر خصكم ... ودعاكم ياأسرتي ياعشري

وممن أشهروا بالاستصراخ للأندلس ؛ ابن الأبار القضاعي بسينيته المشهورة - التي سنتوقف عند بعض مقاطعها - وبهمزيته التي استصرخ بها أبا زكريا الحفصي (2) قائلا : (3)

نادتك أندلس فلب نداءها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها

---

1 - ابن سهل ،ديوان ابن سهل تقديم إحسان عباس بيروت :دار صادر ،1960 م ص ص 140 - 142 .

2 - أبو زكريا الحفصي ،هو يحي بن عبد الواحد بن أبي بكر ولد بمراكش سنة 599 هـ و بويع في القيروان سنة 625 هـ ، توفي سنة 647 هـ .[السراج - الحلل السندسية فى الأخبار التونسية 2- 143 - 146]

3 - المقرى . نفح الطيب . 4 :487 - 488 .

وتبقى نونية أبي البقاء الرندي : (1)

لكل شيء إذاماتم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان

من أشجى الالحان وأكثرها تأثيرا في باب الإستغاثة للأندلس .

ولو تتبعنا شعر الاستنفار وشعر الاستغاثة لما انتهينا إلى حد ، ولهذا نكتفي بالإشارة ، هنا ، إلى أن الشعر قد واكب كل مراحل الصراع الذي خاضه الأندلسيون للحفاظ على وجودهم ، ولم يتخيل عن آداء دوره الريادي في دعوة الاندلسيين إلا الاتحاد والجهاد ، بعد سقوط غرناطة سنة 897 هـ وإنما استمر في تأدية رسالته إلى ملبعد ذلك بزمن طويل

الشعر الأندلسي في معركة التصدي ، ولانستطيع أن نزعم .وإذًا كنا لانستطيع أن نحدد النتائج الملموسة للدور الذي قام به الشعر بأن الناس كانوا يستجيبون دائما لنداءات الشعراء لأن تأثير الشعر - ككل الفنون - يصعب تحديده والإحاطة به ، فإن لدينا العديد من الحالات التي كانت الإستجابة فيها فورية ومباشرة ، بحيث لاينتهي الشاعر من إنشاد قصيدته حتى ينفعل بها الناس ويتجاوبوامعها ، ثم لايلبثون أن يتجهوا نحو الهدف الذي عينه لهم .

ومن أول مالدينا من الأمثلة ، في هذا الباب ، ذلك الإنفعال الذي وقع فور انتشار قصيدة أبي إسحاق الإلبيري التي انتقد بها باديس بن حبوس (2) الذي أسند الوزارة ليوسف بن النغريلة اليهودي ، وقد كان أبو إسحاق يرى أن اشراك اليهود في تسيير الشؤون العامة للمسلمين يضعف دولتهم ، ولذلك حذر الغرناطيين بهذه القصيدة ودعاهم الى تغيير الوضع ، فقال : (3)

ألا قل لصنهاجة أجمعين   بدور الزمان وأسد العرين

---

1 - باديس بن حبوس .هو أبو مناد الصهناجي ،تولى عرش غرناطة بعد وفاة أبيه سنة 429 هـ وقد اشتهر بإسناد الوزارة إلى اليهود من بني النغزيلية وتوفي سنة 465 هـ [العربي .اسماعيل .دولة بني زيري ص ص52 - 128] .

2 - ابن الخطيب، لسان الدين . تاريخ إسبانيا الإسلامية ، أو كتاب أعمال الإعلام .ط2 .تحقيق ليفي بروفنسال .بيروت : دار المكشوف ،1956 ص ص231 - 233 .

3 - نفسه .ص 233 .

مقالة ذي مقة مشفق يعد النصيحة زلفى ودين
لقد زل سيدكم زلة تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود بة وانتخوا وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى فحان الهلاك ومايشعرون
فكم مسلم فاضل قانت لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذاك من سعيهم ولكن منا يقوم المعين

وبعد أن بين مكانة اليهود في غرناطة ، وأبرز تسلطهم على أموال المسلمين ، وسيطرتهم على مصالحهم ، وسخريتهم من دينهم ، التفت الى باديس لينصحه ويحرضه على الفتك بوزيره و التنكيل برهطه من اليهود ، فقال :

فبادر الى ذبحه قربة وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عراهم وخذمالهم فأنت أحق بما يجمعون
ولاتحسبن قتلهم غدرة بل الغدر في تركهم يعبثون
وقد نكثوا عهدنا عندهم فكيف تلام على الناكثين ؟
وكيف تكون لهم ذمة ونحن خمول وهم ظاهرون ؟
ونحن الأذلة من بينهم كأنا أسأنا وهم يحسنون
فلا ترض فينا بأفعالهم فأنت رهين بما يفعلون
وراقب إلاهك في حزبه فحزب الإلاه هم المفلحون

ويبدو أن صنهاجة قد استوعبت محتوى القصيدة واستجابت بسرعة لنداء أبي اسحاق - كما يقول ابن الخطيب - : « فثار به صنهاجة ... وقتل في هذا اليوم آلاف من اليهود ، وذلك سنة 469 وقيل سنة 456 . » (1)

ويأتي بعده المقري ، فيتخلى عن تحديد التاريخ وعدد القتلى ، ولكنه يحتفظ بفورية الإستجابة للقصيدة ، فيقول : « فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم

---

1 - المقري .نفح الطيب 4. :322 .

مقتلة عظيمة ، ومنهم الوزير المذكور - وعادة أهل الأندلس أن الوزير هو الكاتب - فأراح الله البلاد ببركة هذا الشيخ الذي نور الحق على كلامه باد ... » (2)

وإذا كان المقري قد إكتفى بالحرص على الإحتفاظ بالفاء التي تفيد فورية الإستجابة ، في قوله : « فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود » . واكتفى بوصف المقتلة التي نتجت عن هذه القصيدة بالعظيمة ، فإن غرسية غومث يرى أن شهرة أبي إسحاق الإلبيري ، لدى الأوروبيين ، إنما كانت بسبب هذه القصيدة ، حيث يقول :

« تنهض شهرة أبي اسحاق بين المسلمين على أعماله الزهدية ، بخاصة ، ولكن شهرته بين الأوروبيين تعود في المقام الأول الى قصيدته الشهيرة التي توجه بها الى بربر صنهاجة يحرضهم على اليهودي يوسف بن النغريلة وزير الملك ابن باديس ... و الحق أن القصيدة تستحق ماحظيت به من شهرة ، ولانعرف إلا في القليل النادر أن أبياتا من الشعر لعبت دورا أساسيا مباشرا في التاريخ السياسي لأمة من الأمم ، فكهربت العزائم ، ودفعت بها في سرعة خاطفة الى اشعال الحرائق ، وشحذت السيوف للقتل ، كالدور الذي لعبته هذه القصيدة ... » (1)

وإذاكان غومث قد اختلف مع ابن الخطيب في تحديد تاريخ صدور هذه القصيدة التي أشعلت هذه الثورة ، حيث أورد أنها وقعت « في صفر 459 هـ ، 30 ديسمبر عام 1066م» (2) - وهو الأقرب الى الصواب و الأنسب لحياة الإلبيري؛ التي لم تتجاوز سنة 459 هـ - فانه قد أعطاها أهمية أكبر بكثير مما هي عليه عند الخطيب و المقري .

وبعد غومث يأتي هنري بيريز فيزيد الموضوع دقة أكثر حينما يتحدث عن تجاوب الغرناطيين مع هذه القصيدة ، فيقول : إن صنهاجة قد استجابت بعنف بعد عدة أيام من الهدوء الظاهري ، تناقلت خلالها الأفواه قصيدة الشاعر وشرحتها ، وقد أودى هذا الإنفجار الشعبي بحياة ثلاثة آلاف يهودي . (3)

---

1 - غومث ،إميليوغرسية ،مع شعراء الأندلس والمتنبي - ط1 - ترجمة أحمد الطاهر مكي . القاهرة :مكتبة وهبة ،1974 .ص 134 .

2 - م ن، ص ن .

3 - PERES, Henri .La poésie andlouse en arabe classique au XI eme siècle . 2 eme Edition , Paris :Maisonneuve .1953 p 273

وعلى الرغم من إختلاف هؤلاء الدارسين في تحديد بعض ملابسات القصيدة ،واختلافهم في تقدير ماأسفرت عنه من نتائج ، فانهم متفقون على أن الإستجابة لنداء الشاعر كانت فورية وعنيفة ولم تكن هذه هي الحالة الوحيدة التي يتجاوب فيها الناس مع الشعر ويستجيبون له استجابة فورية ، وإنما تكررت العملية مع ابن الأبار ، حينما استصرخ أبا زكريا الحفصي لإنقاذ بلنسية من السقوط - بعد أن حاصرها خايمي الأراغونى (1) سنة 635 هـ بقصيدته المشهورة التي استهلها بقوله : (2)

أدرك بخيلك ، خيل الله ، أندلسا ... إن السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
ياللجزيرة أضحى أهلها جزرا ... للحادثات وأمسي جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدى عرسا
وفي كل غارية إجحاف نائبة ... تثني الأمان حذارا و السر ورأسي
تقاسم الروم لانالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
....
ياللمساجد عادت للعدا بيعا ... وللنداء ، غدا أثناءها جرسا

وبعد أن انتهى من رسم صورة مجسدة لما آلت إليه حال الأندلس من ضعف ، وما آل إليه حال الإسلام و المسلمين فيها من ذل وهوان ، يتوجه بالخطاب الى أبي زكريا ، فيقول :

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى لها المراس حبلا ولامرسا
....
يا أيها الملك المنصور أنت لها ... عليا ، توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من ... يحي بقتل ملوك الصفر أندلسا

---

1 - خايمي الأراغوني ،هو خايمي الأول الملقب بالفاتح ،خلف أباه بيدرو الثاني على عرش أراغون سنة 1213 وتوفي سنة 1276 م (MOURRE .D.E.H. JAQUES)

2 - ابن الأبار ،الديوان ص ص395 - 400 . 1 - المقري ،نفح الطيب . 4 :460 .

ولم يكدا بن الأبار ينتهي من إنشاد قصيدته حتى تجاوب معها أبو زكريا ، وكانت إستجابته ، كما وصفها المقري ، فورية « ... فبادر السلطان باعانتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم . » (1)

وليس قول المقري : « وشحن الأساطيل » بالجمع من قبيل المبالغة ، بل هو حقيقة وقد ذكر الدكتور محمد عبد الله عنان مايؤيدها ، حين تحدث عن بعض ماتركته هذه القصيدة من أثر ، فقال :

« وكان لهذه القصيدة المبكية ، التي مازالت تحتفظ حتى يومنا هذا برنينها المحزن ... أبلغ الأثر في نفس الأمير أبي زكريا الحفصي ، فبادر بتجهيز أسطول شحنه بالسلاح و الأطعمة و الكسى و الأموال ، يتألف من إثني عشرة سفينة كبيرة وست صغيرة ... وتقدر الرواية الإسلامية قيمة ما شحن بهذا الأسطول بمائة ألف دينار من الذهب وهي قيمة لها خطرها في ذلك العصر ... » (2) .

وإذا كانت قصيدة ابن الأبار قد حركت اسطولا علي هذا القدر من الأهمية فانها لم تكن الأخيرة التي تجاوب معها الناس ، وإنما تكررت عملية الإستجابة الفورية مرة أخرى مع مالك بن المرحل في قصيدته التي استنفر بها المغاربة للجهاد في الأندلس ، سنة 662 هـ و التي استهلها بقوله : (3) .

استنصر الدين بكم فاستقدموا ... فانكم إن تسلموه يسلم
لاتسلموا الإسلام ياإخواننا ... وأسرجوا لنصره وألجموا
لاذت بكم أندلس ناشدة ... برحم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها إنه ... لايرحم الرحمن من لايرحم

وبعد أن وضع أمام المغاربة صورة مأساوية لما آلت إليه حال الإسلام و المسلمين في الأندلس من ذل وهوان ، يعود إلى حضهم علي الجهاد ، بابرازما في الجهاد من

---

1 - عنان ،محمد عبد الله . عصر المرابطين والموحدين في الأندلس- عصر الموحدين - ط 1 - القاهرة :لجنة التأليف والترجمة والنشر ،1964 م ص 448 .

2 - مجهول . الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ،نشر محمد بن أبي شنب الجزائر : مطبعة جول كربونل ،1920 م - ص ص 109 - 111 .

3 - نفسه - ص - 109 .

فخر في الدنيا ، وما وعد الله به عباده المجاهدين من حسن ثواب الآخرة ، فيقول :

إخواننا ماذا القعود بعدهم	أفي ضمان الله مايتهم
هل هي إلا جنة مضمونة	أو عودة صاحبها مكرم
حدوا السلاح وانقروا وسارعوا	الى الذي من ربكم وعدتم
إن أمام البحر من إخوانكم	خلقاً لهم تلفت إليكم
ونحوكم عيونهم ناظرة	لاتطعم النوم وكيف تطعم ؟
و الروم قد همت بهم ومالهم	سواكم رد ، فأين الهمم ؟
كلهم ينظر في أطفاله	ودمعه من الحذار يسجم
أين المفر لامفر إنها	هو الغياث أو إسار أو دم

حاول ابن المرحل ،في هذه الأبيات ، أن يستثير العواطف الانسانية بعد أن حرك المشاعر الدينية ، فرسم صورة مأساوية لحياة الأندلسيين الذين فصل البحر بينهم وبين إخوانهم ، وعزم الإسبان على إقتلاع جذورهم من أوطانهم ، فراحوا يتتبعونهم بالقتل و الأسر ، وهم عاجزون لايقدرون على رد الظلم و العدوان ، فنراهم وقد استولى الجزع على أنفسهم وتمكن الرعب من قلوبهم ، يلتفتون نحو إخوانهم من مسلمي المغرب طلبا للغوث و النجدة ، وقد نجح الشاعر - بالجمع بين العامل الديني و الإنساني - في تحريك مشاعر المغاربة ، وتوجيههم نحو الهدف المنشود ، وهذا مانجده في تعليق صاحب الذخيرة السنية ، على هذه القصيدة ، حيث قال مبينا تأثر الناس بها واستجابتهم لندائها - :« فقرئت القصيدة بصحن جامع القرويين من فاس يوم الجمعة بعد الصلاة ، فبكى الناس عند سماعها ، وانتدب كثير منهم للجهاد » (1)

***.

وإذا كان تأثير الأدب في المجتمعات - كما قلنا - من الأمور التي يصعب الكشف عنها أو تحديدها بدقة - لأن هذا التأثير عادة مايكون بطيئا ، خفيا وغير مباشر - فان الخلاصة الموجزة التي يمكن الخروج بها من النماذج التي استعرضناها - على الرغم من عدم شموليتها وقصورها عن الإحاطة بكل مراحل أدب التصدي في الأندلس - هي أن اتهام الشعر الأندلسي بافساد أخلاق الأندلسيين ، وتحميله مسئولية الإسهام في انهيار المجتمع الأندلسي وضياع الأندلس ،فيهما كثير من المجازفة وجحاف - ولعله من الأقرب للصواب أن نقول - بعد هذه النماذج - : إن الشعر الأندلسي قد حاول ، عبر قرون من الزمن أن يحافظ على تماسك المجتمع الأندلسي، وأن يحول دون تصدعه وانهياره، وقد استطاع - فى بعض الأحيان على الأقل - أن يؤثر فى حياة الأندلسين تأثير إيجابيا مباشرا ، وأن يؤدي دورا لايقل عن دور بقية الأسلحة فى معركة التصدي للفناء ، ولعله استطاع بذلك أن يسهم في تمديد عمر الدولة الإسلامية وتأخير انهيارها في الأندلس .

---

1 - Mourre . Michel .Dictionnaire encyclopédique d'histoire Paris: Bordos .1978 .